

قضايا و آراء

16 من ربيع الثاني 1424 هـ 16 الأثنين يونيو 2003 السنة 127-العدد 42560

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية (90)
.... كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها
وابل فطل...
* البقرة: 265*

بقلم الدكتور : زغلول النجار



هذا النص القرآني جاء في العشر الأخير من سورة البقرة، وهي سورة مدنية، وعدد آياتها 286 بعد البسملة، وهي أطول سور القرآن الكريم علي الإطلاق، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلي تلك المعجزة التي أجراها ربنا (تبارك وتعالى) علي يدي نبيه موسى (علي نبينا وعليه من الله السلام) حين تعرض شخص من بني إسرائيل في زمانه للقتل، ولم يعرف قاتله، فأوحى الله (تعالى) إلي عبده موسى أن يأمر قومه بذب بقرة، وأن يضربوا الميت بجزء منها فيحيا بإذن الله، ويخبرهم عن قاتله إحقاقا للحق، وشهادة لله (تعالى) بالقدرة علي إحياء الموتى. ومن مزايا هذه السورة المباركة أن رسول الله - صلي الله عليه وسلم - قد أوصي بقراءتها في البيوت فقال لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة (أخرجه مسلم والترمذي).

وقال (عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم) أيضا: اقرأوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة (رواه مسلم). ويدور المحور الرئيسي لسورة البقرة حول قضية التشريع الإسلامي في العبادات والأخلاق والمعاملات، وإن لم تغفل ركائز العقيدة الإسلامية من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وتنزيه الخالق (سبحانه وتعالى) عن كل وصف لا يليق بجلاله من نحو افتراض الشريك أو الشبيه أو المنازع أو صاحبة أو الولد، وكلها من صفات المخلوقين ولا تليق بجلال الخالق (سبحانه وتعالى).

كذلك حددت السورة الكريمة صفات كل من المؤمنين، والكافرين، والمنافقين، وسجلت قصة الخلق البشري ممثلا في أبونا آدم وحواء (عليهما من الله السلام)، وأشارت إلي عدد من أنبياء الله ورسله من مثل إبراهيم، وولده إسماعيل، وحفيده يعقوب، وموسى، وداود، وسليمان، وعيسى ابن مريم (علي نبينا وعليهم من الله أفضل الصلاة وأزكى التسليم).

وتناولت سورة البقرة أهل الكتاب بإسهاب وصل إلي أكثر من ثلث السورة، وختمت بإقرار حقيقة الإيمان وبدعاء إلي الله (تعالى) يهز القلب والروح والعقل معا.....!! ويمكن إيجاز أهم معطيات سورة البقرة فيما يلي:

أولا: من ركائز العقيدة الإسلامية:

(1) الإيمان بالقرآن الكريم آخر الكتب السماوية التي أنزلها الله (تعالى) بالحق، وأتمها وأكملها، ولذلك تعهد ربنا (تبارك وتعالى) بحفظ رسالته الخاتمة في ذات اللغة التي أوحيت بها (اللغة العربية)، وحفظها كلمة كلمة، وحرفا حرفا علي مدى أربعة عشر قرنا أو يزيد، وإلي قيام الساعة تحقيقا للوعد الإلهي الذي قطعته ربنا (تبارك وتعالى) علي ذاته العلية فقال (عز من قائل):

إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون*
(الحجر:9)

ونظرا لهذا الحفظ الدقيق للقرآن الكريم بصفائه الرباني، وإشراقته النورانية، كان معجزا في كل أمر من أموره، وبذلك تحدي الله (تعالى) الجن والإنس متعاضدين أن يأتوا بسورة من مثله، ولا يزال هذا التحدي قائما دون أن يستطيع أحد من العقلاء أن يجابهه.

(2) الإيمان بالغيب انطلاقا من الإيمان بالله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، وانطلاقا من الإيمان بملائكته، وجميع كتبه ورسالته، بغير تمييز، ولا تفریق، وباليوم الآخر الذي ترجع فيه كل الخلائق إلي الله خالقها، ثم الخلود في الآخرة إما في الجنة أبدا، أو في النار أبدا.
(3) الإيمان بأن الله تعالى منزه عن الشبيه، والشريك، والمنازع، والصاحبة والولد، وأنه سبحانه وتعالى هو خالق كل شيء، وأنه علي كل شيء قدير، وأن من خلقه السماوات السبع والأرضون السبع، وأنه (تعالى) أحيا الخلق من العدم (الموت)، وأنه سوف يميتهم فردا فردا، ثم يحييهم بعنا واحدا ليعودوا إلي الله (سبحانه وتعالى) الذي يعلم غيب السماوات والأرض فيحاسبهم ويجازيهم وهو الرحمن الرحيم، وأنه تعالى شديد العقاب، وقد وصف ذاته العلية بقوله (عز من قائل):

الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم
(البقرة:255)

(4) الإيمان بوحدة الجنس البشري، وبانتهاء نسبه إلي أبونا: آدم وحواء (عليهما من الله السلام)، ومن هنا العمل علي نبذ جميع أشكال العصبية العرقية، والدينية والاجتماعية.

(5) الإيمان بأن الله (تعالى) قد علم آدم الأسماء كلها، وبذلك يكون الإنسان قد بدأ وجوده عالما عابدا، وليس جاهلا كافرا كما يدعي أصحاب الدراسات الوضعية في علم الإنسان.

(6) الإيمان بوحى السماء، وبوحدة جميع الأنبياء والمرسلين الذين أرسلهم الله (تعالى) بالإسلام الصافي، والتوحيد الخالص لله (تعالى)، وقد تكاملت رسالاتهم جميعا في الرسالة الخاتمة التي بعث بها النبي الخاتم والرسول الخاتم (صلي الله عليه وسلم) الذي بعثه الله (تعالى) بالحق بشيرا ونذيرا

للخلق كافة.

(7) الإيمان بتنزيه الله (تعالى) عن الشريك, والشبيه, والمنازع, والصاحبة, والولد, وبأن الشرك من أبشع صور الكفر بالله, وأن من الكفر بالله أيضا منع مساجد الله ان يذكر فيها اسمه, أو السعي في خرابها.

(8) الإيمان بأن الشيطان للإنسان عدو مبين, وأنه يأمر بالسوء والفحشاء, ويغري العباد بأن يقولوا علي الله ما لا يعلمون, ومن هنا كانت مخالفته, ورفضه من الأمور الواجبة علي كل مسلم ومسلمة, اعتصاما بحبل الله المتين, ونجاة من وساوس هذا اللعين, وللتأكيد علي ذلك عرضت السورة الكريمة لقصة الشيطان مع أبونا آدم وحواء (عليهما السلام) حتي تم إخراجهما من الجنة بوسوسته وغوايته, ثم توبتهما, وقبول الله تلك التوبة, وأن ذنب هذه المعصية لا يطول أحدا من ذريتهما أبدا لأن ذلك يتنافى مع العدل الإلهي المطلق الذي قرره ربنا تبارك وتعالى بقوله (عز من قائل):
ألا تزر وازرة وزر أخرى* وأن ليس للإنسان إلا ما سعى*
(النجم:38,39)

(9) الإيمان بأن دين الله (تعالى) وهو الإسلام مبني علي السماحة واليسر ورفع الحرج وأن من أصوله الثابتة أنه لا إكراه في الدين...
(البقرة:256).

(10) الإيمان بحتمية الآخرة وبضرورتها والخوف من فجائيتها وأهوالها وفي ذلك يقول الحق (تبارك وتعالى):
واتقوا يوما ترجعون فيه إلي الله ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون
(البقرة:281)

ثانيا: من أسس العبادة:

(1) إقامة الصلاة, وإيتاء الزكاة, والإنفاق في سبيل الله, والإحسان إلي الخلق بصفة عامة, واليقين بأن ذلك كله كان من متطلبات العبادة في كل الشرائع السماوية السابقة وكلها كانت إسلاما لله.
(2) الدعوة إلي الجهاد في سبيل الله, ردعا للمعتدين والغاصبين والمتجبرين, فالقتال مشروع في الإسلام لدفع الظالمين والغائرين علي أراضى المسلمين, المعتدين علي دمائهم وأموالهم وأعراضهم ومقدساتهم ودينهم وذلك صونا لكرامة الإنسان وإقامة لعدل الله في الأرض, وإعزازا للدين الذي لا يرتضى ربنا (تبارك وتعالى) من عباده دينا سواه.

(3) أداء الحج والعمرة لمن استطاع إلي ذلك سبيلا, وقد وضحت سورة البقرة آداب هاتين الشعيرتين وضوابطهما الشرعية.
(4) صوم رمضان, وآداب الصوم وضوابطه الشرعية.
(5) الدعاء إلي الله (تعالى) وحده وأوقات ذلك المفضلة وآداب الدعاء.

(6) مراعاة حرمة الأشهر الحرم وتوقيرها, وإقامة السنن التي شرعها لنا رسول الله فيها.
(7) التزام تقوي الله (تعالى) في كل حال.

ثالثا: من مكارم الأخلاق التي دعت إليها سورة البقرة:

- (1) الصبر في البأساء والضراء وحين البأس.
- (2) الوفاء بالعهود والمواثيق.
- (3) الشجاعة والإقدام أملا في الاستشهاد في سبيل الله.
- (4) الجرأة في مناصرة الحق، وإعلان الرأي، وعدم كتمان الشهادة.
- (5) الجود والكرم والإنفاق في سبيل الله.
- (6) الحرص علي العمل الصالح، وقول المعروف، والمغفرة للناس.
- (7) إكرام الوالدين والإحسان إلي ذي القربى واليتامي والمساكين وإلي الناس كافة دون من أو أدي.
- (8) تجنب المال الحرام بكافة صوره وأشكاله.

رابعا: من التشريعات الإسلامية في سورة البقرة:

- (1) فصلت سورة البقرة أحكام الأسرة المسلمة من الخطبة إلي الزواج، والطلاق، والمتعة، والرضاعة، والعدة وغيرها، وأمرت باعتزال النساء في المحيض ونهت عن نكاح المشركات والمشركين حتي يؤمنوا.
- (2) عدت هذه السورة الكريمة المحرمات من الطعام من مثل الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه كما حرمت كلا من الخمر والميسر.
- (3) وشرعت للقصاص في القتل.
- (4) وحضت علي كتابة الوصية قبل الموت وحرمت وتبدلها أو إخفاءها.
- (5) وحرمت أكل أموال الناس بالباطل.
- (6) ووضعت ضوابط للتعامل بالدين.
- (7) وحرمت التعامل بالربا تحريما قاطعا.
- (8) وحضت علي رعاية اليتيم وحددت ضوابط الإنفاق في سبيل الله.
- (9) وحرمت إنكار المعلوم من الدين بالضرورة.

خامسا: من القصص القرآني في سورة البقرة:

- جاء في سورة البقرة ذكر عدد من أنبياء الله ورسله، كما جاءت الإشارة إلي عدد من الأحداث للاعتبار بها وأخذ الدروس منها ونوجز ذلك فيما يلي:
- (1) قصة أبونا آدم وحواء (عليهما من الله السلام).
 - (2) قصة بني إسرائيل مع فرعون مصر وخروجهم منها مع نبي الله موسي (عليه السلام)، وعبور موسي بهم البحر، وتفجير الأرض لهم بالماء الزلال، وعصيانهم من بعد ذلك كله، وارتدادهم إلي عبادة العجل، وصعقهم ثم إحيائهم، ومسح الدين اعتدوا منهم في السبت إلي قردة وخنازير، ثم كفرهم بآيات الله، وقتلهم للأنبياء بغير حق، وتحريفهم للتوراة، وعصيانهم لأوامر الله، واعتداؤهم علي حدوده، ورفع الطور فوقهم تهديدا لهم وتخويفا، وقصتهم مع القليل، وأمر الله لهم أن يذبحوا بقرة ويضربوا القليل ببعضها فيبعثه الله (تعالى) حتي يخبر عن قاتله ثم يموت، وقصتهم مع كل من طالوت ملكهم وجالوت وداود (عليه السلام).
 - (3) قصص بعض أنبياء بني إسرائيل من أمثال كل من داود وسليمان (عليهما السلام).
 - (4) قصة نبي الله إبراهيم وولده إسماعيل (عليهما من الله السلام)، ورفعهما

لقواعد الكعبة المشرفة, ودعوتهما إلي الله (تعالى) ان يبعث خاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله عليه وسلم) فى مكة المكرمة, وحوار إبراهيم (عليه السلام) مع نمرود بن كنعان أول من ادعى الربوبية كذبا وبهتاناً.
(5) قصة نبي الله يعقوب (عليه السلام).
(6) حادثة تحويل القبلة.

(7) قصة نبي الله عيسى ابن مريم (عليهما السلام).
(8) قصة الرجل الصالح عزيز الذي مر على بيت المقدس بعد ان خربها بختنصر:

(... قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير)
(البقرة:259)

سادساً: من الإشارات الكونية فى سورة البقرة:

جاء فى هذه السورة المباركة عدد كبير من الإشارات الكونية نوجزها فيما يلى:

(1) التفرقة الدقيقة بين الضياء والنور وهما أمران متميزان, والمقابلة بين الظلمات والنور, وهذه من الحقائق العلمية التى لم تدرك إلا مؤخراً.

(2) تقديم حاسة السمع على حاسة الإبصار وثبت علمياً سبقها فى مراحل خلق الإنسان.

(3) وصف التلازم الدقيق بين هطول المطر الغزير وبين كل من الظلمات والرعد والبرق والصواعق.

(4) الإشارة إلى إمكانية خطف البصر بواسطة البرق.

(5) الإشارة إلى المراحل المتتالية فى إعداد الأرض لعمارته بخلق الإنسان ومن ذلك تمهيد سطحها, وبناء السماء من حولها, وإنزال الماء عليها, وإخراج الثمرات رزقاً للعباد, وإحياء الأرض بعد موتها وبث كل دابة فيها.

(6) ذكر معجزات فلق البحر لنبي الله موسى (عليه السلام) ونجاته ومن معه وهلاك فرعون وجنده, وكذلك تفجير اثنتى عشرة بئراً مائية بضربة من عصي موسى (عليه السلام) ونبينا وعليه من الله تعالى (السلام) وتلك الآبار لاتزال موجودة حتى اليوم على طول صدع أرضى واحد بالمنطقة الشرقية من خليج السويس.

(7) الإشارة إلى أمراض القلوب ومنها الخوف, والوسوسة, والشك, وقد أثبتت الدراسات النفسية أنها حقائق علمية لم تكن معروفة وقت تنزل القرآن الكريم.

وتشبيه قسوة قلوب اليهود بأنها أشد من قسوة الحجاره لأن من الحجاره ما يلىن بتفجرها بالأنهار, أو بتشققها وخروج الماء منها, أو بهبوطها من خشية الله (تعالى), وقسوة قلوب اليهود لا تلىن أبداً.

(8) الحديث عن المشرق الحقيقى والمغرب الحقيقى للأرض مما يشير إلى وسطيتها للكون, وهى مما لا يستطيع العلم الكسبى إدراكه.

(9) الإشارة إلى خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وإلى الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وبأن ذلك كله لله.

(10) الإشارة إلى تصريف الرياح، وإلى السحاب المسخر بين السماء والأرض وهي حقائق لم تدرك بشئ من التفصيل إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين.

(11) وصف الأهله بأنها مواقيت للناس والحج.

(12) الإشارة إلى أذي المحيض، والنصيحة باعتزال النساء في فترة المحيض وقد أثبتت الدراسات الطبية صحة ذلك.

(13) التأكيد علي ما في كل من الخمر والميسر من أثم تفوق أية منافع يمكن أن تجتني من وراء الخوض في أثمهما.

(14) التأكيد علي حقيقة أن الجنة (أي الحديقة ذات الأشجار الكثيفة الملتفة علي بعضها البعض) بالربوة المرتفعة عن كل من الهضاب والسهول المحيطة بها إذا أصابها وابل (أي مطر غزير) أنت أكلها ضعفين لأن احتمال إغراقها بماء المطر الغزير غير وارد لسرعة انحسار الماء عنها بعد أخذ كفايتها منه نظرا لارتفاعها فوق أعلي منسوب للسهول المحيطة بها.

وفي حالة عدم هطول المطر الغزير فإن الطل أي رذاذ المطر الخفيف أو الندى) يكفيها لري نباتاتها وطيب ثمارها ووفرة عطائها. والمقصود بذلك أن الجنة بالربوة العالية تزكو وتزدهر وتثمر وتجد بعطائها سواء كثر المطر عليها أو قل.

وقد وصفت سورة البقرة إنفاق الصالحين من عباد الله، الذين لا يبغون من وراء إنفاقهم إلا مرضاة الله والثبات علي الحق بأنه يزكو عند الله ويطيب (زاد قدره أم قل) تماما كما يزكو عطاء الجنة بالربوة العالية زاد المطر عليها أو قل.

وكل قضية من هذه القضايا العلمية تحتاج إلي معالجة مستقلة، ولذلك فإني سوف أقصر حديثي هنا علي النقطة الأخيرة منها وهي المتعلقة بوصف الجنة بالربوة العالية، وقبل الدخول إلي ذلك لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين القدامى والمعاصرين في تفسير تلك الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله (تعالى):

ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير (البقرة:265)

* ذكر ابن كثير (يرحمه الله) ما مختصره: وهذا مثل المؤمنين المنفقين أموالهم ابتغاء مرضات الله عنهم في ذلك (وتثبيتا من أنفسهم) أي وهم متحققون ومثبتون أن الله سيجزيهم عن ذلك أوفر الجزاء.. قال الشعبي: (وتثبيتا من أنفسهم أي تصديقا وبقينا).

وقوله تعالى: - (كمثل جنة بربوة) أي كمثل بستان بربوة، وهو عند الجمهور المكان المرتفع من الأرض، وزاد ابن عباس والضحاك: وتجري فيه الأنهار

وقوله تعالى: (أصابها وابل) وهو المطر الشديد... (فأتت أكلها) أي ثمرتها (ضعفين) أي بالنسبة إلى غيرها من الجنان, (فإن لم يصبها وابل فطل).

قال الضحاك: هو الرذاذ وهو اللين من المطر, أي هذه الجنة بهذه الربوة لا تمحل أبدا لأنها إن لم يصبها وابل فطل, وأيا ما كان فهو كفايتها, وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبدا بل يتقبله الله ويكثره وينميه, كل عامل بحسبه, ولهذا قال: (والله بما تعملون بصير) أي لا يخفي عليه من أعمال عباده شيء * وجاء في تفسير الجلالين (رحم الله كاتبه) ما مختصره: (ومثل نفقات) (الذين ينفقون أموالهم ابتغاء) طلب (مرضات الله وتثيبا من أنفسهم) أي: تحقيقا للثواب عليه, بخلاف المنافقين الذين لا يرجونه, لإنكارهم له (ومن) ابتدائية (كمثل جنة) بستان (بربوة) بضم الراء وفتحها, مكان مرتفع مستو (أصابها وابل فأتت) أعطت (أكلها) بضم الكاف وسكونها, أي: ثمرها (ضعفين) مثلي ما يثمر غيرها (فإن لم يصبها وابل فطل) مطر خفيف, يصيبها ويكفيها لارتفاعها, المعنى: تثمر وتركو, كثر المطر أم قل فكذلك نفقات من ذكر, تركو عند الله كثرت أم قلت (والله بما تعملون بصير) فيجازيكم به.

* وذكر صاحب صفوة البيان لمعاني القرآن (رحمه الله رحمة واسعة) ما نصه: (وتثيبنا من أنفسهم) أي كما أنفقوا أموالهم في سبيل الله ابتغاء مرضاته أنفقوها توطينا لأنفسهم علي حفظ هذه الطاعة وترك ما يفسدها, (ف (من) بمعنى اللام, أو تثيبنا للإسلام وتصديقا به, وتحقيقا للجزاء الموعود به من أصل أنفسهم, فهي الدافعة له وهي المنشأ والمبتدأ. (جنة) تطلق علي الأشجار الملتفة المتكاثفة, وهي الأنسب هنا, كما تطلق علي الأرض المشتملة عليها.

(بربوة) بمكان من الأرض مرتفع عن السيل, والعادة في أشجار الربى أن تكون أحسن منظرا وأزكى ثمرا. (أكلها) ثمرها. وكل مأكول: أكل. (فطل) فمطر خفيف يكفيها لطيبها وكرم منبتها. والطل: أضعف المطر وهو الرذاذ, وجمعه طلال وطلل. والمراد: أن هذه الجنة تزكو وتثمر, كثر المطر أو قل, فكذلك نفقة هؤلاء ابتغاء مرضاة الله وتثيبنا من أنفسهم تركو عند الله وتطيب, كثرت أو قلت.

* وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم (جراهم الله خيرا) ما نصه: حال الذين ينفقون أموالهم طلبا لمرضاة الله وتثيبنا لأنفسهم علي الإيمان, كحال صاحب بستان بأرض خصبة مرتفعة يفيدته كثير الماء وقليله, فإن أصابه مطر غزير أثمر مثلين, وإن لم يصبه المطر الكثير بل القليل فإنه يكفي لإثماره لجودة الأرض وطيبها, فهو مثمر في الحالتين - فالمؤمنون المخلصون لا تبور أعمالهم - والله لا يخفي عليه شيء من أعمالكم. وجاء تعليق الخبراء في الهامش بالنص التالي: في تعبير القرآن الكريم بكلمة ربوة وهي الأرض الخصبة المرتفعة إشارة إلي ما كشفه العلم الحديث لأنه بارتفاعها تبعد عن المياه الجوفية ليغوص المجموع الجذري في التربة من غير ماء يضره, ويتضاعف عدد الشعيرات الماصة لأكثر كمية من الغذاء للسيفان والمجموع الخضري فيتضاعف المحصول, وللوايل من الأمطار فائدة فوق التغذية أنه يذيب بعض المواد التي لا تحتاج إليها النباتات, ويغسلها من التربة لأن وجودها مما يعطل نمو النباتات, كما يغسلها من الآفات. * وجاء في كل من تفسير الطبري والظلال (رحم الله كاتبه برحمته الواسعة)

وصفوة التفاسير) جزي الله كاتبها خيرا) كلام مشابه ولا أري حاجة إلي تكراره هنا.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

من الأمور المشاهدة أن سطح الأرض ليس تام الاستواء، فهناك القمم السامقة للسلاسل الجبلية، وهناك السفوح الهابطة، لتلك السلاسل حتي تصل إلي السهول المنبسطة والممتدة إلي ما فوق مستوى سطح البحر بقليل.

وبين القمم السامقة والسهول المنبسطة نجد الروابي أو الرببي (جمع ربوة أو رابية)، والتلال جمع تل، والأكام (جمع أكمة) وهي التواءات الأرضية المختلفة دون الربوة، ثم الهضاب (جمع هضبة) أو النجود (جمع نجد)، ثم السهول ومن بعد السهول يأتي كل من المنخفضات الأرضية علي اليابسة، والمنخفضات البحرية (المغمورة بماء البحار والمحيطات).

ويرجع السبب في تباين تضاريس سطح الأرض إلي اختلاف التركيب الكيميائي والمعدني للصخور المكونة لها، وبالتالي إلي اختلاف كثافة تلك الصخور، وذلك لأن كتل الغلاف الصخري للأرض تطفو فوق نطاق من الصخور شبه المنصهرة يعرف باسم نطاق الضعف الأرضي يحكمها في ذلك قانون الطفو: تماما كما تطفو جبال الجليد في ماء المحيطات. ويصل ارتفاع أعلى نقطة علي سطح الأرض (وهي قمة جبل إفرست في سلسلة جبال الهمالايا) إلي 8848 مترا فوق مستوى سطح البحر، بينما يقدر منسوب أخفض نقطة علي اليابسة (وهي حوض البحر الميت) بحوالي الأربعمئة متر تحت مستوى سطح البحر، ويقدر متوسط منسوب سطح اليابسة بحوالي 840 مترا فوق مستوى سطح البحر. وفي المقابل يصل أكثر أعوار المحيطات عمقا (وهو غور ماريانا في قاع المحيط الهادي بالقرب من جزر الفلبين) إلي أكثر قليلا من (11) كيلو مترا، بينما يصل متوسط أعماق المحيطات إلي حوالي الأربعة كيلو مترات (3729) إلي (4500 متر) تحت مستوى سطح البحر.

وهذا التباين في المناسيب وفر عددا هائلا من البيئات التي يتناسب كل منها مع أنواع محددة من صور الحياة، ومن ذلك أن أشجار الفاكهة والكستناء وأشجار الثمار بصفة عامة تجود في الهضاب والنجود والروابي دون الألف متر فوق مستوى سطح البحر، بينما يتوقف نمو الحبوب ودرنات البطاطس عند حوالي الألفي متر فوق مستوى سطح البحر (2160 مترا تقريبا) ويصل الحد الأعلى لنمو الغابات إلي حوالي 2660 مترا فوق مستوى سطح البحر. وتحديد بيئة الروابي للجنة المضروب بها المثل في الآية الكريمة التي نحن بصددنا تحديد معجز لأن هذه البيئة هي أفضل البيئات المعروفة لنا لنمو أشجار الفاكهة ولنمو كل من أشجار الثمار الأخرى كالزيتون واللوزيات والصنوبريات وغيرها وذلك لأن بيئة الروابي تتميز بلطف مناخها، ووفرة مائها، وزيادة فرص تعرضها لأشعة الشمس، ولأمطار السماء، ولرطوبة الجو، ولحركة الرياح، ولتجدد الهواء حولها، وكذلك فهي أنسب البيئات لنمو الأشجار بصفة عامة، ولنمو أشجار الثمار بصفة خاصة.

فالروابي من أشكال سطح الأرض المستوية والمرتفعة فوق مستوى سطح البحر ارتفاعا متوسطا يتراوح بين الثلاثمئة والستمئة متر. لأنها دون الجبل وفوق التل، وعلي ذلك فإن ماء المطر لا يغرقها مهما انهمر بغزارة لاندفاعه

بالجاذبية إلى المستويات الأقل في منسوبها من الرطوبة في المنطقة المحيطة بها وذلك بعد تشبع تربتها وصخورها بالقدر اللازم من الماء المرطب لها والمخزون فيها. وضبط هذا المخزون المائي يساعد النبات علي القيام بجميع أنشطته الحيوية بكفاءة دون إغراق أو جفاف، وذلك لأن الجفاف يقضي علي النبات، كما أن الإغراق بالماء، أو الزيادة في مخزون الصخور والتربة منه يؤدي إلي تعفن جذوره وتعطنها وتحللها مما يؤدي كذلك إلي القضاء عليه.

وعند هطول المطر علي الرطوبة فإن كلا من تربتها وصخورها، والنباتات النامية عليها يأخذ كفايته من الماء بينما يفيض الزائد عن تلك الكفاية إلي المناسب الأخفض حتي يصل إلي الأودية والسهول المحيطة بالرطوبة. ويساعد انضباط كمية المخزون المائي في تربة وصخور الرطوبة علي امتداد المجموع الجذري للنباتات بصفة عامة، وللأشجار منها بصفة خاصة إلي أبعاد أعمق في كل من التربة والصخور مما يضاعف من كمية العناصر والمركبات التي يتاح لجذور النبات الوصول إليها وامتصاصها مع عصاراته الغذائية التي تستخلصها تلك الجذور من الأرض، كما يساعد علي زيادة تثبيت النباتات بالأرض ومقاومته لشدة هبوب الرياح، وغيرها من المتغيرات البيئية.

ومن مميزات بيئة الروابي أنها إذا نزلت بها الأمطار هائلة تضاعف إنتاجها وإذا تضاءلت الرطوبة في الجو من حولها إلي الرذاذ أو الندى فقط فإنها تعطي ثمارها وافرة، لأن نباتات الرطوبة يمكنها الاستفادة بماء المطر مهما قل وبماء الندى الذي يتكثف من حولها بمعدلات أعلي من تكثفه في السهول أو في بطون الأودية المغلقة خاصة في المناطق الجافة. وعلي ذلك فإن إثمار كل من أشجار الفاكهة، وغيرها من أشجار الثمار الأخرى كالزيتون واللوزيات والصنوبريات وجود بشكل ملحوظ في الروابي المرتفعة فوق مستوي سطح البحر عنها في السهول المنبسطة والأودية المغلقة، وذلك لأنها إذا أصابها المطر الغزير افادها ولم يضرها لسرعة انحسار مائه عنها بعد ريبها ربا كافيا فتتحسن وتثمر ثمرا مضاعفا وإن لم يصبها هذا الوابل من المطر الغزير فإن الرذاذ الخفيف أو الندى المتكثف حولها يمكن ان يوفيهما حاجتها من الماء فتستمر في الحياة وتؤتي أكلها بإذن الله.

هذا وقد شبهت الآية الكريمة المؤمنين الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، ابتغاء مرضاته، وابتغاء الثبوت من أنفسهم (مهما تكن إمكاناتهم المادية) بالجنة من الأشجار المثمرة النامية علي الرطوبة المرتفعة تحت ظروف بيئية طيبة وفرت لها كل أسباب النماء والعطاء فأثمرت وأعطت بسخاء شديد إذا نزل عليها ماء المطر، وبسخاء أيضا إذا قل عليها المطر، فعطاؤها لا يتوقف ولا ينقطع تحت مختلف الظروف وكذلك المؤمنون الذين ينطلقون من منطلق الإيمان الجازم بأن الله (تعالى) هو الرزاق ذو القوة المتين فيبدلون في سبيله سواء كثرت إمكاناتهم أو قلت، وذلك طلبا لمرضاته، وثبتنا من أنفسهم لأن من وسائل تربية النفس الإنسانية إخراج المال في سبيل الله، وفي ذلك يقول ربنا (تبارك وتعالى):

ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وثبتنا من أنفسهم كمثل جنة برية أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير
(البقرة:265)

وفي هذه الآية الكريمة إشارة واضحة إلي تفضيل زراعة أشجار الثمار في أراضى الروابي بصفة عامة، وهي أراض مسطحة مرتفعة، دون الجبل، وفوق التل (يتراوح ارتفاعها بين ثلاثمائة وستمائة من الأمتار فوق مستوى سطح البحر)، وهذه حقيقة علمية أثبتتها التجارب علي مدى عقود متتالية، وورودها في كتاب الله الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة علي نبي أمي (صلي الله عليه وسلم) في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين وكانت تعيش في صحراء جرداء قاحلة، لاتعرف الجنات ولا تعرف الأشجار المثمرة غير نخيل التمر وبعض الأعناب إلا في أماكن محدودة جدا منها، ومن هنا يأتي هذا الوصف القرآني شاهدا للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه علي خاتم أنبيائه ورسله (صلي الله عليه وسلم).

ولكونه الرسالة الخاتمة فقد تعهد ربنا (تبارك وتعالى) بحفظه بنفس لغة وحيه (اللغة العربية) فحفظه كلمة كلمة، وحرفا حرفا، من أية زيادة أو نقص، أو تبديل أو تغيير علي مدى يزيد علي الأربعة عشر قرنا وإلي أن يرث الله (تعالى) الأرض ومن عليها وذلك تحقيقا للوعد الإلهي الذي قال (تعالى) فيه:

إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون
(الحجر:9)

فالحمد لله علي نعمة القرآن، والحمد لله علي نعمة الإسلام، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والحمد لله في الآخرة والأولي والصلاة والسلام علي خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلي آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلي يوم الدين.